الفصل الأول

التعرّف على ملك الملوك

لو اجتمعت سلطات العالم على قلب رجل واحد لما استطاعت أن تغيره كرهاً .

ولو تحالف الحديد والنار والسجن والتهديد على سجين فى زنزانة انفرادية لما استطاعت تلك القوى مجتمعة أن تجعل هذا السجين يحب ما لا يحب أو يكره مالا يكره .

ربما استطاع السجان أن يقهر سجينه على التوقيع على ورقة بالإكراه . . ربما استطاع أن يرغمه على تقطيع الحجارة وأكل الحصى ربما استطاع أن يقطع لسانه وينزع جلده ولكنه لا ولن يستطيع أن ينزع ذرة كراهية من قلبه أو يبدل عواطفه قهراً .

فهناك فى أعمق الأعماق روح أعتقها الله من كل القيود .

لا سلطان لأحد عليها .

حتى الشيطان يقول له الله :

« إِنَّ عِبادِى لَيْس لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطانٌ إِلَّا مَنِ اتَّبعكَ مِنَ الْغاوِين » .

(الحجر : ٤٢)

والغاوون هم أولئك الذين اتبعوا الشيطان بإرادتهم وهواهم ودون سلطان منه .

ولهذا تعجز كل وسائل الإصلاح التى تعتمد على العنف والقهر والقوة .

وتفشل النظم التى تحاول تغيير المجتمعات بالوسائل البوليسية والأساليب القهرية .

لأن الحب لا يستخرج بالإرغام .

والشرف والنبل والإخلاص والرحمة والمودة لا تولد بالكرباج ولا تصنع بقرار وزارى .

وإنما هى نبات ربانى .

وينمو هذا النبات ويخضر ويزهر ويثمر حينما تنفلق البذور فى الطين ، وتخرج من التراب وتتوجه بأوراقها الخضر إلى مصدر النور ومصدر الطاقة . . إلى شمس وجودها . . إلى ربها .

حينما يصبح كل واحد فينا مثل عباد شمس يتحرك معلق الأبصار لا يغفل عن خالقه لحظة . . أينما توجه ينادى قلبه . . ربىّ . . ربىّ . . فيجاوبه الصدى مع كل نبضة قلب . . لبيك عبدى . . أنا معك .

فلا مصدر للحياة والحب والخير إلا الله .

والله يقول :

« لا إِلَهَ إِلَّا أَنَا » .

(طه : ١٤)

لا حاكم غيرى . . لا فاعل سواى . . أنا وحدى الضار النافع

والمعز المذل والباسط القابض والرافع الخافض والمحيي المميت .

أنا المالك وحدى

الملك والملكوت لى

والسماوات والأرضين لى

والغيب والشهادة لى

والعزة لى

والجبروت لى

والقوة لى

والشفاعة لى

أنا الذى أغير ولا أتغير

ولا مهرب منى إلا إلىّ

وكل قوتك منى وحياتك منى ومواهبك منى .

بى ترى وبى تسمع وبى تعقل ، وبى تحيا وبى تمشى وبى تهضم طعامك وتشق من أسقامك .

أنا الذى أروى وليس الماء . . وأنا الذى أشبع وليس الطعام . . وإنما هى أسبابى أقمتها لمشيتى إن شئت سقيتك وما ارتويت وأطعمتك وما شبعت .

وهذا هو التوحيد .

أول ما أنزل الله من علم على جميع الأنبياء .

فقال لمحمد عليه الصلاة والسلام .

« فاعْلَمْ أنَّه لا إلٰهَ إلاَّ اللهُ واسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ » . (محمد : ١٩)

وقالها لكل نبى ورسول من آدم إلى الخاتم .

وقال فى حديثه القدسى :

« لا إله إلا الله حصنى فمن قالها دخل حصنى ومن دخل حصنى أمن عذابى » .

وجعل من هذه الوحدانية أساساً لكل شىء .

فبهذه الوحدانية تتوحد الشخصية الإنسانية ، وتتوحد الأمم وتتوحد الغاية وتتوحد القبلة ، وتتوحد الأهداف وتتوحد المسيرة .

وبهذه الوحدانية يزول الخوف فلا تعود النار ولا الحديد ولا سياط الجلادين ولا جبروت الحكام لها حقيقة بذواتها إنما الكل جنوده وأدوات مشيئته .

وهو يقول :

« فَلا تَخافُوهُم وخافُونِ » .

(آل عمران : ١٧٥)

« فَلا تَخْشَوْهُم واخْشَوْنِي » .

(البقرة : ١٥٠)

« لاَ إله إلاَّ أنَا » .

(طه : ١٤)

أنا الذى بيدى مقاليد كل شىء . . تخرج من عندى الأوامر والمراسيم . . وتتنزل الصواعق . . وأرسل الرياح وأسقط المطر . . وأسلط الجبارين بعضهم على بعض . . وأبعث أنبيائى هدى ورحمة .

وبهذا التوحيد يجتمع اهتمام الإنسان وتتوحد قبلته وتتوحد أشواقه

وتنتظم مشاعره وأفكاره كأنها الحبات سلكت خيطاً واحداً .

وهذا هو الأثر البنائى للتوحيد على الشخصية الإنسانية .

ولو عبد الإنسان أرباباً متعددين لتوزع اهتمامه فيما بينها وتشتت وانقسم على نفسه ولتعددت وجهاته وانفرطت مشاعره وتضادت وتناقضت ولم يجتمع على شيء ، وافتقد التركيز والراية الواحدة ولانقسمت بذلك الأمم واختلفت وتناحرت كل منها تدافع عن ربها لتستعبد به غيرها من الأمم .

فالوحدانية هى العمود الذى يحمل سقف الكون ويحمل سقف الشخصية الإنسانية .

ويكاد يكون القرآن نشيداً توحيدياً يذكرنا بالوحدانية فى كل صفحة :

« قُلْ هُوَ اللهُ أَحَدٌ . اللهُ الصَّمَدُ . لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ . وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُواً أَحَدٌ » .

(سورة الإخلاص)

« شَهِدَ اللهُ أَنَّهُ لاَ إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالملائِكَةُ وأُولُو الْعِلْمِ قائماً بِالْقِسْطِ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ » .

(آل عمران : ١٨)

« ولا تَدْعُ مَعَ اللهِ إِلٰهاً آخَرَ » .

(القصص : ٨٨)

« إِلٰهُكُمْ إِلٰهٌ واحِدٌ » .

(النحل : ٢٢)

« وقَالَ اللهُ لا تَتَّخِذُوا إلٰهيْنِ اثْنَيْنِ إنَّما هُوَ إلٰهٌ واحِدٌ فَإيَّاىَ فارْهبون » .

(النحل : ٥١)

وناقش القرآن هذه الوحدانية وأقام عليها البرهان . فلو تعددت الآلهة التى تحكم السموات والأرض لذهب كل إله بما خلق ، ولعلا بعضهم على بعض ، ولتعددت الأوامر الإلهية وتناقضت ، ولنازع الآلهة الصغار الآلهة الكبار ولا بتغوا إلى ذى العرش سبيلا ولفسد كل شىء :

« لَوْ كانَ فِيهِما آلِهَةٌ إلاَّ اللهُ لَفَسَدتا » .

(الأنبياء : ٢٢)

« ما اتَّخَذَ اللهُ مِنْ وَلَد وما كانَ مَعهُ مِنْ إلـه إذاً لَذَهَبَ كلُّ إلٰهٍ بما خَلَقَ ولَعلا بَعضُهُمْ علَى بَعْضٍ سُبْحانَ اللهِ عمَّا يَصِفُونَ » .

(المؤمنون : ٩١)

« قُلْ لَوْ كانَ مَعَهُ آلِهةٌ كما يَقُولُونَ إذاً لابْتغَوْا إلَى ذِى الْعَرْشِ سَبِيلاً » .

(الإسراء : ٤٢)

« وجَعَلُوا لَهُ مِنْ عِبادِهِ جُزْءاً إنَّ الإنْسانَ لَكَفورٌ مُبِينٌ » .

(الزخرف : ١٥)

بل هو واحد أحد صمد لا يتجزأ . . لا مثل له ولا ضد ولا ند ولا بعض ولا شريك ولا رسم ولا كيف ولا كم ولا أين . . لم يحلل فى الأشياء فيقال هو فيها كائن ولم يفترق عنها فيقال هو عنها بائن .

وهو كما قال عن نفسه :

« إنَّ اللهَ لَغنِيٌّ عَنِ الْعالَمينَ » .

(العنكبوت : ٦)

« إنْ تَكْفُروا أَنْتُمْ ومَنْ فِي الأَرْضِ جَمِيعاً فإنَّ اللهَ لَغنِيٌّ حَمِيدٌ » .

(إبراهيم : ٨)

« لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وهُوَ السَّمِيعُ البَصِيرُ » .

(الشورى : ١١)

ومن أسند القدرة والرحمة والنعمة والجنة لغير الله فقد حرم نفسه منها عدلا يوم القيامة ومكانه مع آلهة الوهم التي عبدها .

« إنه مَنْ يُشْرِكْ باللهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ » .

(المائدة : ٧٢)

« ومَنْ يُشْرِكْ بِاللهِ فَقَدْ ضلَّ ضلالاً بَعِيداً » .

(النساء : ١١٦)

فالوحدانية صلب العقيدة وعمودها المتين وحبلها الوثيق ولا نجاة إلا باللجوء إلى ركنها وصخرتها . . فكل شيء هالك إلا وجهه .

وهو الحق وحده

المنفرد بالألوهية

المنفرد بجميع السلطات .

المنفرد بالنفع والضر .

ويسوق القرآن آيات عديدة على هذا الانفراد بالنفع والضر .

« قلْ أتعْبُدونَ مِنْ دُونِ اللهِ مالا يَمْلِكُ لَكُمْ ضراً ولا نفعاً » .

(المائدة : ٧٦)

ويلقن الله رسوله :

« قُلْ إِنِّي لا أَمْلِكُ لِنفْسِي ضرًّا ولا نفْعاً إلا ما شاءَ اللهُ » . (يونس : ٤٩)

« قلْ إنِّى لا أمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا رَشَداً » .

(الجن : ٢١)

« قُلْ فَمَنْ يَمْلِكُ لَكُمْ مِنَ اللهِ شَيْئاً إنْ أرادَ بِكُمْ ضرًّا أو أرادَ بكم نَفْعاً » .

(الفتح : ١١)

« ولا تَدْعُ مِنْ دُونِ اللهِ مالا يَنْفَعُكَ ولا يَضرّك فإنْ فَعَلْتَ فَإنَّكَ إذًا مِنَ الظَّالمين » . .

(يونس : ١٠٦)

« قُلْ أفاتَّخذْتُم مِنْ دُونِهِ أوْلياءَ لا يَمْلِكُونَ لأَنْفُسِهِم نفْعاً ولاَ ضرًّا » .

(الرعد : ١٦)

« قُل ادْعُو الَّذِين زَعَمْتُم مِنْ دُونِهِ فَلا يَمْلِكونَ كَشْفَ الضَّرِّ عَنْكُم ولا تَحْوِيلا » .

(الإسراء : ٥٦)

« وإنْ يَمْسَسْكَ اللهُ بِضُرٍّ فَلا كاشِفَ لَهُ إلَّا هُو » .

(يونس : ١٠٧)

« إن يردْن الرَّحْمٰن بِضرٍّ لا تُغْنِ عَنِّى شفاعتهم شَيْئاً » .

(يس : ٢٣)

ويقول عن الشيطان :

« ولَيْسَ بضارِّهِمْ شيئاً إلا بإذْنِ اللهِ » .

(المجادلة : ١٠)

ويقول عن السحر والسحرة :

« وما هُمْ بضارِّينَ بِهِ مِنْ أحدٍ إلاَّ بإذْنِ اللهِ » .

(البقرة : ١٠٢)

وإذا كان الله هو المنفرد بالضر والنفع فالسؤال الذى يتبادر إلى الذهن . . ما هو إذن دور الأسباب الظاهرة مثل الميكروبات والسموم والأمراض ؟ كيف نراها تضر ونرى العقاقير تنفع والطبيب يشفى ؟

والجواب أن الأسباب لله هو الذى يملكها وهو الذى يؤتيها وهو الذى يسوقها وهو الذى يسخرها . . وهو الذى أقام قانون السببية .

يقول الله عن ذى القرنين :

« وآتَيْناهُ مِنْ كُلِّ شيءٍ سَبَباً . فأتْبَعَ سَبباً » .

(الكهف : ٨٤ ، ٨٥)

فالأسباب لا تضر بذاتها ولا تنفع بذاتها وإنما هى فى جميع الأحوال مظهر لمشيئته تضر بإذنه وتنفع بإذنه . . وهو إن شاء أوقع الضرر بها أو بدونها ، وإن شاء عطلها عن الفعل كما عطل النار عن إحراق إبراهيم عليه السلام .

ولذلك يقول إبراهيم :

« والَّذى هُو يُطْعِمُنِى ويَسْقِينِ.وإذا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِين » .

(الشعراء : ٧٩ ، ٨٠)

يقول ذلك بالرغم من الأسباب الظاهرة للإطعام والسقاية والشفاء . . ولكنه فهم الأمر على حقيقته أنه سبحانه بيده مقاليد كل شيء .

كما أن الله منفرد بالتصريف وبالعلم المحيط .

يقول الله لرسوله فى القرآن :

« لَيْسَ لَكَ مِنْ الأَمْرِ شَيْءٌ ».

(آل عمران : ١٢٨)

« للهِ الأَمرُ مِنْ قَبْلُ ومِنْ بَعْدُ ».

(الروم : ٤)

« ألا لَهُ الْخَلْقُ والأَمْرُ تَبارَكَ اللهُ رَبُّ الْعالَمِين ».

(الأعراف : ٥٤)

« قُلْ إنَّ الأَمْرَ كُلَّهُ للهِ ».

(آل عمران : ١٥٤)

« بَلْ للهِ الأَمْرُ جَميعاً ».

(الرعد : ٣١)

« وما تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إلَّا يَعْلَمُها ولا حَبَّةٍ فِي ظُلماتِ الأَرْضِ ولا رَطْبٍ ولا يابِسٍ إلَّا فى كتابٍ مُبِينٍ ».

(الأنعام : ٥٩)

« قُلْ لا يَعْلَمُ مَنْ فِي السَّمٰواتِ والأَرْضِ الغَيْبَ إلا اللهُ ».

(النمل : ٦٥)

وكل ما يصنع الإنسان ويخترع وينشئ يجب إسناد الصنع فيه إلى الله حتى ما يبنى بيديه من سفن ومراكب :

« ولَهُ الْجوارِ المُنْشَئات فِي البَحْرِ كالأَعْلامِ ».

(الرحمن : ٢٤)

« وآيةٌ لَهُمْ أنَّا حَمَلْنا ذُرِّيَّتَهُمْ فِي الفُلْكِ المشْحُونِ . وخَلَقْنا لَهُم مِنْ مثلِهِ ما يركَبُون ». (يس : ٤١ ، ٤٢)

« فَأوحَيْنا إليهِ (إلى نوح) أن اصْنَعِ الفُلْكَ بأعْيُنِنا ووحْيِنا » .
(المؤمنون : ٢٧)
« أفَرأيْتُمْ ما تَحْرُثُون . أأنْتُم تَزْرعُونَه أمْ نحنُ الزَّارِعُون » .
(الواقعة : ٦٣ ، ٦٤)
« أفَرأيْتُم ما تُمْنُون . أأنْتُم تَخْلقُونَهُ أمْ نحْنُ الخالِقُون » .
(الواقعة : ٥٨ ، ٥٩)
أفَرَأيْتُم الماءَ الَّذِى تَشْربُونَ.أأنْتُم أنْزلْتُموهُ مِنَ المزْنِ أمْ نَحْن المنْزلون » .
(الواقعة : ٦٨ ، ٦٩)
« أفَرَأيْتُم النَّارَ الَّتى تُورُون.أأنْتُم أنْشأْتم شَجَرتَها أمْ نحْنُ المنشِئون » .
(الواقعة : ٧١ ، ٧٢)

والله بذلك يفرد نفسه بإنشاء كل هذا حتى ما يتصور الإنسان أنه ينشئه بيديه مثل السفن والمخترعات ، فهى الأخرى كانت بوحى من الله . . هو الذى أمدنا بالعقل وبالفكرة وبالخامات ، ثم تابعنا بعنايته وتوجيهه ، ورافقنا خطوة بخطوة حتى الإنجاز النهائى .

وفى ذلك إفراد واضح لله بالصنع والفعل ، وإن كان الظاهر أن الإنسان يصنع ويفعل .

ثم إن الله منفرد بالفضل :

« وأن الفَضْل بيَد الله يُؤْتِيهِ مَنْ يَشاءُ واللهُ ذُو الفَضْلِ العظِيمِ » .
(الحديد : ٢٩)

وفى الحديث النبوى :

اطلبوا الأشياء بعزة الأنفس فإن الأمور تجرى بالمقادير (أى إن الذل

في الطلب لن يجديكم إذا كان في تقدير الله حرمانكم) .

ومن وصية الرسول عليه الصلاة والسلام لابن عباس : « يابني إن الناس كلهم لو اجتمعوا على أن يضروك بشيء ما ضروك إلا بشيء كتبه الله عليك وإن اجتمعوا على أن ينفعوك بشيء ما نفعوك إلا بشيء كتبه الله لك ».

وأجاب الرسول على من قال .

أستغيثك يا رسول الله .

بقوله : إنما يستغاث الله .

كما أن مقاليد الإيمان بيد الله وليست بيد الرسل ولا الكتب ولا بتأثير المعجزات :

« وأقسَمُوا باللهِ جَهْدَ أيمانِهِم لئنْ جاءَتْهُم آيةٌ ليُؤْمِنُنَّ بها قل إنما الآياتُ عِنْدَ اللهِ وما يُشْعِرُكم أنها إذا جاءتْ لا يُؤْمِنُونَ . ونُقَلِّبُ أفْئِدَتَهُم وأبْصارَهُمْ كَما لَمْ يؤْمِنُوا بِهِ أولَ مَرَّةٍ ونَذرهُمْ في طُغْيانِهِم يَعْمَهُونَ . ولو أننا نَزَّلْنا إلَيْهِمُ الملائِكَةَ وكَلَّمَهُمُ الموْتَى وحَشَرْنا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلا ما كانوا لِيُؤْمِنُوا إلَّا أنْ يَشاءَ اللهُ ولكنَّ أكْثَرَهُمْ يَجْهَلُونَ » .

(الأنعام : ١٠٩ – ١١١)

ولا يستطيع رسول أن يهدي من لا يريد الله هدايته :

« إنَّكَ لا تَهْدِي مَنْ أحْبَبْتَ ولكنَّ اللهَ يَهْدِي منْ يشاءُ » .

(القصص : ٥٦)

ولا يجدي كتاب حيث لا يريد الله أن يفتح على العقل بشيء :

« ولو نزَّلْنا عَلَيْكَ كِتاباً فِي قِرطاسٍ فَلمسُوهُ بأيْدِيهِمْ لقالَ الَّذينَ كَفَرُوا إنْ هذا إلا سِحرٌ مُبينٌ » . (الأنعام : ٧)

وإنما بالله وحده :

« وإذ أَوْحَيْتُ إلىَ الْحوارِيِّينَ أنْ آمنُوا بى وبرسُولِى قالوا آمنَّا واشْهَدْ بأنَّنا مُسْلِمُونَ » .

(المائدة : ١١١)

كما أن الصلاح والطاعة بيد الله .

« وأَوْحَيْنا إلَيْهِمْ فِعْل الخَيْراتِ وإقامَ الصَّلاةِ وإيتاء الزَّكاةِ » .

(الأنبياء ٧٣)

وهو الذى يجعل الإمام إماماً :

« وجَعَلْناهُمْ أئمَّةً يهْدُون بأمْرنا وأوْحَيْنا إلَيْهِمْ فِعْل الْخيْراتِ وإقامَ الصَّلاةِ وإيتاء الزَّكاةِ وكانُوا لنا عابِدِين » .

(الأنبياء : ٧٣)

ولكن مشيئة الله وهديه ليست أموراً عشوائية تعطى وتمنع فى تعسف وإلا انتفت مسئولية العباد تماماً . . والقرآن يوضح هذه المسألة فيقول إن هناك دائماً حكمة وراء المنع والعطاء والهداية والإضلال ، وإن مشيئة الله وهدايته دائماً تستند إلى لياقة واستعداد فى العبد . . وإن العبد يملك من المبادرات وخلوص النية والتوجه ما يرشحه للعطاء أو الحرمان . . فعطاء الله مشروط كما أن حرمانه مسبب وليس الأمر جبراً وإكراهاً وتعسفاً :

« وجَعَلْنا مِنْهُم أئمَّةً يهْدُون بأمْرِنا لمَّا صَبَروا وكانُوا بآياتِنا يُوقِنُون » .

(السجدة : ٢٤)

« كَذلِكَ يطْبَعُ اللهُ عَلَى كُلِّ قلْبِ متكَبِّرٍ جبَّار » . (غافر : ٣٥)

« فِى قُلُوبِهم مَرَضٌ فزادَهُمُ اللهُ مَرضاً » .

(البقرة : ١٠)

« فلمَّا زاغُوا أَزاغَ اللهُ قُلوبَهُم » .

(الصف : ٥)

« اللهُ أعْلَمُ حيثُ يجْعلُ رسالَتهُ » .

(الأنعام : ١٢٤)

« ولوْ علِمَ اللهُ فِيهِمْ خيراً لأسْمَعَهُم » .

(الأنفال : ٢٣)

فهناك دائماً أسباب . . والعبد يستطيع أن يخطو إلى ناحية النور فيتلقى النعمة أو يرجع إلى الظلمة فيصيبه الحرمان فالأمور تنبنى على توجهات قلبية والتوجهات القلبية حرة بيد أصحابها وملك لأصحابها .

والقضية لها ظاهر وباطن .

ولهذا يبدأ الصوفى أول ما يبدأ بتطهير باطنه (وهو ما يسمونه فى المصطلح الصوفى بإعداد المحل) ، وذلك بالعبادة والطاعة والخروج من كل خلق ذميم والتخلق بكل خلق كريم ، وبذلك يجعل نفسه أهلاً لتلقى النفحة .

وفى الحديث النبوى :

« إن لربكم فى أيام دهركم نفحات فتعرضوا لها » .

والتعرض لا يؤتى ثمرته إلا إذا تمت المناسبة بين المحل وبين النفحة التى سوف تحل فيه .

وإذا جالست المجرم المحترف ساعات فكلمته عن الشرف والأمانة

ومكارم الأخلاق فلن يسمعك ، وإن بدا مصغياً ، وإذا سمعك فلن يفهمك ، وإذا فهمك فلن يتصرف على وفاق ما فهم . . لأن قلبه غير معد لاستقبال النصح .

ولا يمكن دعوة الملوك إلى مرحاض . . إنما لابد أن تفرش لهم الأرض وتصف طاقات الورد وتفتح صالات الاستقبال .

ولهذا ألقى الله برسالته إلى محمد عليه الصلاة والسلام ولم يلقها إليك ليس ظلماً ولا تحيزاً ، وإنما لأن القلب المحمدى هو المحل الكامل الذى أعده صاحبه وطهره وفرشه بالورود والرياحين ، فأصبح ملائماً لنزول ملك الملوك .

وفى الأمر أسرار .

والمسألة دقيقة وشريفة وتحتاج إلى مزيد نظر وتأمل .